الفصل الثالث والعشرون

العباسيون

٥٨٩ — ٦٦١ هـ ؛ ١١٩٣ — ١٢٦٨ م

إغارة التتر

أولاد صلاح الدين — قيام الملك العادل — الحرب الصليبية الرابعة — أولاد الملك العادل — نظرة عامة فى العالم الإسلامى فى المشرق — الخلافة — الخليفة الظاهر — الخليفة المستنصر — الخليفة المعتصم — إغارة التتر — سقوط بغداد — تقويض المدنية الإسلامية

أولاد صلاح الدين

توفى صلاح الدين لسوء الطالع دون أن يضع نظاماً خاصاً لولاية العهد ، فنجم عن هذا الإغفال وقصر النظر ، تقويض دعائم الإمبراطورية وخرابها ؛ ومما هو جدير بالذكر أن تلك الدولة انقسمت بعد وفاته إلى ثلاثة ممالك مستقلة على رأس كل واحدة منها ولد من أولاده ، فحكم « على الملك الأفضل » (أبو الحسن نور الدين) الشام وفلسطين ، وباستيلائه على دمشق عاصمة الإمبراطورية غدت له الأفضلية على أخويه ؛ كما نودى بالملك العزيز عثمان أبى الفتح عماد الدين — الذى كان يحكم مصر فى عهد والده — ملكا على تلك البلاد ؛ بينما ولى الملك الظاهر غازى (غياث الدين) إمارة حلب ؛ وقد كان الملك العادل (سيف الدين أبو بكر) أمير الكرك والشوبك أخو صلاح الدين الذى كان محبوباً من رجال الجيش ، يحكم قسما من الجزيرة وعدة مدن أخرى على الفرات ؛ كذلك كان أولاد شيركو قد احتفظوا بحمص ، كما احتفظ رؤساء آخرون من أعضاء الأسرة ببعض الإمارات ، وكان يحكم اليمن

تقسيم الإمبراطورية

الأفضل والعزيز والظاهر

٥٨٩–٦٦١ هـ

الأخ الثانى[١] لصلاح الدين . فلو أن أولاد السلطان العظيم أجمعوا أمرهم ووحدوا صفوفهم عقب وفاة والدهم ، لاستطاعوا برغم انقسام الإمبراطورية أن يحتفظوا بملكهم ، غير أن المنازعات وقلة الكفاءة فتت فى ساعدهم ، وأعانت الملك العادل على الاستئثار بملك أخيه دونهم ، كما أدى النزاع الذى نشب بين الأفضل والعزيز ، إلى إخراج الأول من دمشق واستيلاء عمه العادل عليها . وعلى هذا اضطر الأفضل أن يكتفى بمدينة صرخد وحدها ، ولكن العزيز لم يلبث أن توفى بعد أن أعقب طفلا صغيراً[٢] فاستدعى الأفضل لتولى الوصاية عليه ، ثم نشب خلاف بينه و بين العادل مما أدى إلى نفى الأفضل مع ابن أخيه المنصور من مصر ، ومنحهما بعض الإقطاعيات فى الجزيرة ، كما استقل العادل بملك مصر ، والشام ، وشرقى الجزيرة ، وخلاط ، وأرمينيا العظمى . وفى سنة ٦١٣ هـ ضم إليه بلاد اليمن واستعمل عليها حفيده يوسف[٣] . وقد كان سيف الدين ملكا بعيد النظر ، وافر العقل ، عظيم الفطنة ، حسن السيرة ، جميل الطوية حازما . وكان كأخيه محباً للعلم ، مكرماً للعلماء ، فلم يلبث أن أصبح سيد الشام وأعالى الجزيرة ومصر وجزيرة العرب دون منازع ، وعلى الجملة أصبحت دولته فسيحة الأرجاء لا تقل شأناً عن إمبراطورية أخيه ، كما أخذت تقرأ له الخطبة على المنابر وتضرب السكة باسمه[٤] .

الملك العادل ٢ — ٢ — ١٢٠٠ م

١٢٠٧ — ١٢٠٨ م

١٢١٥ — ١٢١٦ م

١١٩٣ — ١٢٦٨ م

الحرب الصليبية الرابعة

و بعد مضى سنتين على وفاة صلاح الدين أثار البابا كلاستين الثالث حملة شعواء منادياً بوجوب إرسال حملة أخرى على الشرق ، غير أن عهد حروب الأبطال كان قد انقضى بانتهاء النزاع بين صلاح الدين وريكاردوس ملك الإنكليز ، ولهذا كان الكفاح بين المسلمين والمسيحيين هذه المرة هزيلا عديم

(١) اسمه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب . (المعرب)
(٢) محمد الملقب « بالملك المظفر » .
(٣) الملقب بالملك المسعود .
(٤) أبو الفداء .

الفائدة ، وبالرغم من الانقسام الذى ساد معسكر المسلمين فقد برهنت إغارة الفرنج هذه المرة أيضاً على عقمها ؛ ويقول ميشو : « إن جميع دول الغرب فشلت فى محاولتها غزو حتى أصغر حصن فى الشام » . وكانت قد وصلت فى تلك الأثناء قوة كبيرة من الصليبيين إلى السواحل الفينيقية ، واستولت على بيروت نكثاً بشروط المعاهدة التى كانت قد عقدت مع صلاح الدين وتعهد فيها الأمراء النصارى فى الشام بمراعاتها واحترام شروطها ؛ وكان أولاد صلاح الدين فى تلك الآونة لا يزالون على رأس حكوماتهم ، غير أن الملك العادل بصفة كونه « حامى الإسلام » أسرع إلى صد هجمات الفرنج وفتح مدينة يافا عنوة ، بينما كان الصليبيون يحاصرون « تبنين » فانتهى ذلك القتال بفشل النصارى فشلا مريعاً بحيث اضطرهم إلى طلب الصلح ، فعقدت مهادنة مدتها ثلاث سنوات ، كما عرفت تلك الحملة بأروع ضروب الفتك والانتقام .

حصار « تبنين »
٥٩٤ هـ
— ١١٩٧
١١٩٨ م

وبعد ثلاث سنوات نهض البابا « أنوسينت الثالث » معلناً حرباً صليبية أخرى ، حاضا الأمراء المسيحيين على الاشتراك فى تلك الحرب الهوجاء . ويقول كاتب أوروبى مشهور : « لم يكن للبابا « أنوسينت الثالث » هدف سوى جمع الأموال إشباعا لبخله وسدا لنفقات معيشته المترفة » ، وقد رفض ريكاردوس ملك انكلترا إعارة هذا النداء أى اهتمام ، بيد أن أمراء أوروبا الآخرين لم يبلغوا حكمته وبعد نظره ، فاجتمعت قوة كبيرة منهم لغزو الشرق من جديد ، ولكنها لحسن الطالع بدلا من أن تزحف على الشام جعلت طريقها القسطنطينية . وتتفق رواية ابن الأثير بشأن تلك الحملة مع رواية المعاصرين الأوربيين ، فيقول : « كان قد وثب على الملك أخ[1] له فقبض عليه وملك البلد منه ، وسمل عينيه وسجنه ، فهرب ولده[2] والتحق بالصليبيين الذين اجتمعوا ليخرجوا إلى بلاد

١٢٠٠ م

الحملة الصليبية الخامسة

٥٨٩ـ٦٦١ هـ

(١) واسمه إيزاك انكلوس .
(٢) الكسيوس .

الشام لاستنقاذ البيت المقدس ، فاستنصر بهم على عمه الذى اغتصب الملك من أبيه » ، ويصف لنا أيضاً بعبارة مؤثرة غزو المدينة وإحراقها والأعمال الشنيعة التى ارتكبها حملة الصليب فى المدينة فيقول : إنهم أشعلوا فيها النيران ثانية حتى احترق ربع عمارتها[١] . ولم يكن هذا العمل غير بدء سلسلة الأعمال الوحشية التى ارتكبها هؤلاء المتعصبون الذين اشتد هوسهم عند رؤية الجوامع وكنائس اليهود التى لا يعبد فيها غير إله واحد « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » فاتخذوا هذه المرة خطة جديدة لمهاجمة الكافرين ، وأعملوا السيف فى رقاب السكان وأحرقوهم بالنار ، ولكن هؤلاء الكفار على زعمهم وزعم بعض جيرانهم المسيحيين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن أنفسهم وأملاكهم ، فصب المتهوسون جام غضبهم على الأبنية الأثرية فراحت طعمة للنيران ، وكانت الحرائق فى خلال ثمانية الأيام يرتفع لهيبها ، فتشاهد على مسافة عدة فراسخ من الميناء ، وقد عقدت ضبابا كثيفاً على المدينة المنكودة الآهلة بالسكان[٢]

١١٩٣ — ١٢٦٨ م

ولما استولى الصليبيون عنوة على المدينة أعملوا السيف فى رقاب جميع الروم ؛ ويقول المؤرخ فيلوهارديون : « كان من المناظر المروعة مشاهدة النساء والأطفال يركضون هنا وهناك ، وقد تملكهم اليأس القاتل والخوف المرعب ، ينتحبون ويتضرعون دون مجيب » . ويقول ميلز وغيبون المؤرخان المشهوران : « إن هذه الأعمال النكراء التى ارتكبها مخلصو القدس انتقدها البابا أنوسينت الثالث نفسه انتقاداً مرا ، وأنحى باللائمة على هؤلاء المتوحشين » . ولكن هذه الفظائع كانت على كل حال تفوق حد الوصف ؛ ويظهر أن الصليبيين كانوا مجردين من كل شفقة أو رحمة إذ ارتكبوا فى أثناء عدة أيام أروع المناظر المثيرة فى داخل المدينة وخارجها . ويقول ميشو : « أصبحت القرى والكنائس خرابا يبابا

---

(١) ابن الأثير .

(٢) إدوارد غيبون (تاريخ انحطاط وسقوط الدولة الرومانية) .

لا تصلح إلا للمحراث يشق ركامها ، وأخذت الطرق تزدحم بالجموع المروعة ، وهى لا تدرى أين تسير يلاحقها الخوف ، وقد ناء كاهلها بالمتاعب والأوصاب » .

كذلك أنحى عليهم المؤرخ « نيسيتاس البيزنطى » — الذى كاد الصليبيون يعتدون على عفاف ابنته — باللائمة و يقول : « إنهم فاقوا الأتراك وحشية وقسوة » ، ثم يقارن فى موضع آخر بينهم و بين جنود صلاح الدين الذين يقول فيهم : « إنهم عند ما استولوا على القدس لم يعتدوا على حرمة المنازل ، ولا على العذارى ولا الراهبات ، ولم يسيئوا قط إلى المسيحيين ، ولم يعملوا فى رقابهم السيف أو يلقوهم طعمة للنيران »[1] ، ثم يقول أيضاً : إن هؤلاء المتهوسين عقب دخولهم المدينة انتزعوا الجواهر من كؤوس الهياكل المقدسة ، وطفقوا يشربون بها الخمور ، وفرشوا المناضد التى كانوا يقامرون و يأكلون عليها بصور المسيح والقديسين ، وداسوا تحت أقدامهم التماثيل المقدسة ، ومزقوا فى كنيسة سان صوفيا ستارها المشهور ، وانتزعوا حواشيه الذهبية ، وحطموا المذبح المزين بالصور الفنية ، ٥٨٩ـ٦٦١هـ
واقتسموا قطعه الصغيرة فيما بينهم ، ونقلوا على بغالهم وخيولهم التحف الفضية ، والمصنوعات الذهبية التى انتزعوها من الأبواب والمنابر والهياكل ، وكان كلما ناء حيوان بحمله الثقيل طعنه صاحبه بخنجره طعنة تجلاء حتى غدا الرصيف المقدس ملطخاً بدماء الحيوانات ؛ ومن مهازل القدر أيضاً أنهم نصبوا تمثال الشيطان على عرش البطريك ، وأخذت المومسات يرقصن فى الكنيسة رافعات عقيرتهن بأغنيات تثير الضحك والسخرية .

الحرب الصليبية السادسة ١٢١٦ — ١٢١٧م

وفى سنة ١٢١٦ — ١٢١٧ م أخذ البابا « أنوسينت الثالث » يخطب من جديد معلنا ضرورة إرسال حملة سادسة لإنقاذ البلاد المقدسة ؛ فانتظم فى عقدها النساء ، والأطفال ، والشيوخ ، والعرج ، والعمى ، والمجذومون ، كما التحق بهم ملك المجر ، ودوق النمسا ، وجميع رؤساء الإقطاعيات فى ألمانيا السفلى ، وقصدوا

(١) ميشو .

الشرق وعددهم زهاء ٢٥٠ ألف ومعظمهم من الألمان ، فنزلوا أولا فى بلاد الشام وبعد أن خربوا قسما من الموانئ ساروا بحراً إلى مصر ، فوصلوا إلى فرع النيل الشرقى وحاصروا مدينة دمياط ، فهرع الملك العادل من شمالى الشام إلى مصر ، ولكنه توفى فى طريقه على مقربة[1] من دمشق ، وكانت مدة حكمه عشرين سنة هزم فيها الفرنج فى عدة مواقع ، وأحبط غزواتهم برا وبحراً . وعلى أثر وفاته قسم أولاده الإمبراطورية بينهم ، فولى محمد الملقب بالملك الكامل (أبو المعالى ناصر الدين) مصر ؛ وولى ابنه الثانى عيسى الملقب بالملك المعظم (شرف الدين) الشام ، وكانت هذه المملكة تمتد من حمص إلى العريش على الحدود المصرية ، وفى جملتها فلسطين والقدس والكرك وبعض المدن الأخرى ؛ كما ولى ابنه موسى الملقب بالملك الأشرف (مظفر الدين) إمارة حلب . وبعد حصار طالت مدته ١٨ شهرا سقطت دمياط فى أيدى الصليبيين الذين دخلوا المدينة بنفس الروح التى دخلوا بها بيت المقدس ؛ غير أن انتقامهم لم ينصب هذه المرة إلا على عدد قليل جداً من السكان ، إذ كانت دمياط قد استحالت بعد ذلك الحصار الطويل إلى مقبرة شاسعة تضم عظام أربعة آلاف شهيد من مجموع سكانها الذين كان عددهم سبعة آلاف نسمة ، وحتى هذا المنظر المروع لم يثر الشفقة فى قلوب الصليبيين إذ ذبحوا البقية الباقية . ثم واصلوا زحفهم على القاهرة ؛ ومع أن الملك الكامل كانت قد أتته النجدات من أخويه إلا أنه شعر أن لا قبل له بمناجزتهم ، ولهذا اقترح أن يرد إليهم جميع المدن التى كان صلاح الدين قد استولى عليها على شرط أن يتنازلوا له عن مدينة دمياط ، ولكنهم أبوا ذلك علماً منهم بأن فى استطاعتهم الاستيلاء على مصر بسهولة ؛ وكانت مياه الفيضان وقتئذ قد بدأت ترتفع فكسر المسلمون السداد ، وما هى إلا برهة حتى غمرت المياه البلاد برمتها ، ووجد الصليبيون

وفاة الملك العادل
٧ جمادى ٦١٥ هـ
٣١ — ٨ —
١٢١٨ م

أولاد الملك العادل

١١٩٣ —
١٢٦٨ م

حصار دمياط
١٠ رمضان
٦١٦ هـ
١٩ — ١١ —
١٢١٩ م

(١) جاء فى ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٩ : « انه توفى بحالفين ، ونقل إلى دمشق ، ودفن بالقلعة ، ثم نقل إلى المدرسة المعروفة به » . (المعرب)

أنفسهم قد انفصلوا عن قاعدتهم الحربية ، فانقض المسلمون على القوة التى كانت تنقل إلى الصليبيين المؤونة والأرزاق ومزقوها شر ممزق ، وعندئذ انتشرت المجاعة وأخذ المسلمون يواصلون الهجوم على الفرنج حتى اضطروهم إلى طلب الصلح ، فتبادل الفريقان الأسرى ، ووافق الصليبيون على إخلاء دمياط على أن يحميهم المسلمون فى طريقهم إلى الساحل ؛ كما نالوا أيضاً بعض الامتيازات للحجاج النصارى ، واستردوا خشبة الصليب الحقيقية « المشكوك » فيها .

هزيمة الفرنج
١٩ رجب ٦١٩ هـ
٨ — ٩ — ١٢٢١ م

وما كاد الصليبيون يغادرون البلاد حتى نشب الخلاف بين أولاد الملك العادل ، وتحالف الملك المعظم مع جلال الدين الطموح بن علاء الدين خوارزم شاه وتم الاتفاق بينهما على عزل الملك الكامل الذى أخذ يتفاوض مع فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا ، وقد كان يستعد إلى القيام بحملة صليبية أخرى لحسابه الخاص خلافا لرغبة البابا .

٥٨٩ — ٦٦١ هـ

وفى سنة ١٢٢٧ توفى الملك المعظم ؛ فخلفه ابنه « الملك الناصر داود » على الشام ، وما انقضت مدة وجيزة حتى اتفق الملك الكامل والملك الأشرف على الاستيلاء على دمشق ، وتعويض الناصر عنها حوران والرها والرقة . وفى سنة ١٢٢٩ م (٦٢٩ هـ) وصل فردريك (ويسميه العرب بالأنبرور[1]) إلى الشام ، وترددت الرسل بينه وبين الكامل حتى عقدت بينهما نهائيا معاهدة صلح مدتها عشر سنوات وستة أشهر وعشرة أيام ، اشترط فيها أن يسلم إليه الملك العادل مدينة القدس وبيت لحم والناصرة ، وجميع المدن الواقعة بين يافا وعكا ، ولم يبق للمسلمين فيها غير حق تأدية المراسيم الدينية والاحتفاظ بجامع عمر ؛ ولكن هذه المعاهدة لم تنل رضا المسلمين ولا موافقة المسيحيين ، إذ كانت بقدر ما هى

وفاة الملك المعظم تغرين الأول وتغرين الثانى ١٢٢٧ م

٤ — ١١ — ١٢٢٩ م

(١) ويسميه أبو الفداء بفردريك . ويقول : إن القاضى جمال الدين الذى أرسله السلطان ببرس بمهمة سياسية إلى أوربا قد أعلمه بأن الأنبرور كان يمتاز من بين ملوك الفرنج بالعلوم وميله الخاص إلى الفلسفة والمنطق والطب ، وحبه إلى معاشرة المسلمين ، إذ أن الملك المذكور كان قد تلقى علومه فى صقلية حيث كان معظم سكانها من المسلمين .

مشينة للأولين الذين حرمتهم ما حصل عليه صلاح الدين ، بغيضة للمسيحيين ، لأنها سمحت للمسلمين بتأدية مراسيمهم الدينية ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى عاد فردريك إلى أوربا للدفاع عن بلاده ضد البابا .

وفاة الملك الكامل ٢١ رجب ٦٣٥ هـ

وفى الثامن من شهر آذار سنة ١٢٣٨ توفى الملك الكامل ، فأجلس الأمراء ابنه أبا بكر على عرش أبيه ولقب بالملك العادل ، وكان شابا ضعيف الأخلاق يميل إلى اللهو والمجون ، فخلعه أخوه أيوب الملقب بالملك الصالح إذ كان أقدر منه على كبح جماح المماليك الذين كانت تتألف منهم الطبقة الأرستقراطية فى مصر .

إعادة الاستيلاء على القدس

وفى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ — ١٢٤٠ م) استولى أبو ناصر داود أمير حران على القدس وهدم أسوارها ، وقد كانت آسيا الغربية فى ذلك الحين تعصف بها ريح الفوضى والانحلال ما عدا البقعة الواقعة تحت نفوذ الخليفة . ولأجل أن نفهم الحوادث التى وقعت إثر ذلك وأسباب الكارثة التى حلت بالمدينة العربية نرى لزاما علينا الرجوع القهقرى قليلا حيث نجد المكتفى والمستنجد والمستضىء قد نجحوا فى استعادة سلطتهم الزمنية على العراق وجنوب الجزيرة وفارس والأهواز كما غدت سلطتهم الروحية فى تلك الأثناء أقوى منها فى أى زمن كان منذ وفاة الواثق .

وفاة المستضىء ١١٧٩ — ١١٨٠ م

أحمد أبو العباس الناصر لدين الله ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ م

وفى سنة ٥٧٥ توفى المستضىء وخلفه ابنه أحمد أبو العباس ولقب « بالناصر لدين الله » ، وكان حاكما قديراً ، ويقول الذهبى : إن عصره الطويل الذى دام سبعاً وأربعين سنة عصر رخاء وعظمة حربية ؛ فقد أسس جيشاً قويا ، ويظهر أنه كان محترما مرهوب الجانب من جميع الأمراء المجاورين ، وساد فى عهده السلم وانتشر الأمن فى ربوع البلاد ؛ ولما توفى ولى ابنه أبو نصر محمد الخلافة ولقب « بالظاهر بأمر الله » ، ويقول ابن الأثير : « لما ولى الخليفة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين » ، وقد توفى بعد حكم لم يدم إلا سنة

أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله

أبو جعفر المنصور المستنصر بالله ١٠ — ٧ — ١٢٢٦ م

واحدة فبويع بالخلافة بعده ابنه أبو جعفر المنصور ، ولقب « بالمستنصر بالله » ، وهو الذى أعاد إلى الخلافة هيبتها وفخامتها القديمتين ، وكان شهما جواداً شجاعا عادلا ورعا حكيما . وتقول الرواية إنه بنى على شط دجلة من الجانب الشرقى المدرسة المستنصرية ، وجهزها بكافة اللوازم الضرورية لراحة الطلاب ، كما أسس جيشاً لجباً للدفاع عن مملكته ضد غارة التتر .

غارة التتر

لا يخفى أن أصقاع منغوليا الشاسعة ، أو البلاد المعروفة عادة بالتتر الصينية الممتدة من حدود فرغانة الشرقية إلى آمور كانت كما لا تزال إلى الآن تسكنها قبائل بربرية متوحشة تسمى بأسماء مختلفة ، ولكنها تنتسب إلى أصل واحد ، ويصفهم عبد اللطيف البغدادى الذى شهد الأعمال التى ارتكبوها فى مختلف حواضر العالم المتمدن بقوله : « إن نساءهم يحاربن كما يحارب الرجال وسلاحهم الرئيسى هو القوس والنشاب ، وهم لا يحرمون شيئاً إذ أنهم يأكلون جميع الدواب ، ولا يبقون على أحد فى حروبهم ، بل يذبحون النساء والأطفال على حد سواء ؛ وهم معتادون عبور الأنهار العميقة بالقِرَب ، أو بإمساك أذناب الخيول فيسبحون وراءها ، ولا يعرفون تعباً أو نصباً ، ويستقبلون الموت من غير ما خوف ولا وجل » . وفى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى اتحدت قبائل التتر برئاسة جنكيز خان الملقب « بغضب الله » ، وكانت ولادته سنة ١١٥٥ ، واسمه الحقيقى « تنوجين » ، ولما نودى به خاقانا أو رئيساً أعلى للقبائل سنة ١١٨٩ شرع فى زحفه على الغرب والجنوب ، وما كادت تمضى سنة ١٢١٩ حتى احتل الصين ، وكافة بلاد التتر ؛ وكان العالم الإسلامى وقتئذ يحكمه عدة أسر مستقل بعضها عن البعض الآخر ، وكانت الإمبراطورية السلجوقية قد انقرضت فى بلاد فارس ؛ أما السلطان سانجار فكان قد ثارت عليه قبيلة تركانية تسمى « أوغوز » ، وأستعرت بين الفريقين نار حروب دامية دارت فيها الدائرة عليه حتى وقع هو وزوجه الملكة « تركان خاتون » أسيرين فى أيدى الثوار الذين

جنكيزخان (غضب الله) ١١٦٣ — ١٢٩٨ م

أخذوا يتوغلون منذ ذلك التاريخ فى مرو ونيسابور ، ويعيثون فى البلاد نهباً وسلباً ، ولكن يظهر أن الأقدار قد أبقت على كثير من المدن والمزارع ليقوم بتخريبها قبائل التترفيما بعد . ولقد بقى السلطان « سانجار » أربع سنوات أسيراً ولكنه بعد وفاة زوجه التى كانت المحرض الوحيد على بقائه فى الأسر — فر من سجنه ووصل إلى نيسابور حيث وجد عاصمة ملكه خرابا يبابا ، وإمبراطوريته قد تقوضت دعائمها فمات بعد قليل من شدة الحزن والأسى ، وولى بعده ابن أخيه طوغرل ، ولكنه قتل فاستولى على الملك من بعده أحد رجال البلاط .

السلطان سانجار

٥٥٢ هـ
١١٥٧ م

نهاية الدولة السلجوقية

وفى حوالى سنة ١١٥٠ م قامت دولة جديدة فى أفغانستان الشرقية وحلت محل الدولة الغزنية بعد أن قوضت دعائمها ، وأسقطتها من شاهق عزها ؛ وذلك أن علاء الدين حسين « جيهانسوز » مؤسس الدولة الغورية الجديدة كان قد انقض على غزنة واضطر أسرة سبكتكين إلى الالتجاء إلى لاهور ، فلم يمض عليهم سوى قليل حتى أصبحوا ملوكها الوطنيين .

٥٤٥ هـ
١١٥٠ م

علاء الدين حسين

الدولة الغورية

ولما أراد « علاء الدين » إشباعا لطموحه أن يوسع رقعة بلاده من جهة الغرب صمد له الملك « سانجار » الذى كان حينئذ فى ذروة عظمته ، وصده عن التوغل والزحف فى بلاده ، ولهذا اضطر إلى تحويل وجهه شطر بلاد الهند ؛ ولما توفى فى سنة ١١٥٦ م خلفه ابنه « سيف الدين » الذى توفى هو أيضاً بعد مدة قصيرة ، وبموته آل العرش إلى ابن عمه « غياث الدين » . وما كادت تبدأ سنة ٥٦٩ هـ حتى ألحقت غزنة نهائيا بالمملكة الغورية ، وفى سنة ٥٧١ هـ استولى « شهاب[1] الدين » أخو غياث الدين وقائد جيوشه العام فى الشرق على مولتان

١١٦٣ م

١١٧٥ م

وفى سنة ٥٨٢ هـ قتل « بحرو مالك » آخر ملوك الدولة الغزنية بعد أن كان قد ألقى القبض عليه بحيلة حربية . وفى سنة ٥٨٩ هـ زحف غياث الدين على الهند فدارت بينه وبين جيوشها الموحدة رحى القتال فى ميدان « تاراين » على ضفاف

١١٨٧ م

١١٩٣ م

(١) يعرف فى التاريخ باسم معز الدين محمد بن سام .

« نهر ساراسواتى » ففرق شملهم وهزمهم هزيمة منكرة ، وبهذا النصر الفريد أصبح المسلمون أسياد الهند الحقيقيين ، غير أن المنية عاجلته سنة ٥٩٩ ، فخلفه أخوه « شهاب الدين » الذى قتل غيلة بعد ثلاث سنوات دون أن يعقب ولداً ؛ فولى عرش الهند من بعده مملوكه « قطب الدين أيبك » ؛ بينما ولى غزنة أحد مماليكه المسمى بيلدز ، وقد خلف الأول ابنه « أبو المظفر آرام » ، غير أن حكمه لم يدم غير سنة واحدة ، إذ عزله صهره المسمى « آلتماش » (شمس الدين) الذى نادى بنفسه ملكا على الهند ، وظل فى الحكم ٢٥ سنة ، وكان أول ملك مسلم فى تلك البلاد استلم العقد من خليفة بغداد ، وهى الوثيقة التى طالما طمع الكثير من الحكام السابقين فى الحصول عليها ؛ ثم أفضى الحكم بعد وفاته إلى أولاده حتى سنة ١٢٦٥ م حيث نادت « راضية » ابنة آلتماش بنفسها ملكة على الهند عام ٦٣٤ هـ بناء على رغبة والدها ، و بتتويجها شاهد الشرقيون لأول مرة ملكة سافرة ؛ وكان مستهل حكمها محفوفا بالمخاطر والمشاكل ، وذلك أن الأمراء والحكام أحجموا فى أول الأمر عن إظهار ولائهم للملكة الجديدة ، ولكنها استطاعت بلباقتها وحسن سياستها أن تكتسب ودهم فنعمت البلاد بنعمة الطمأنينة والعدل ، واعترف الجميع بسلطانها من ديبال إلى لاخنوتى[1] غير أن حياتها مع ذلك انتهت بمأساة رائعة ، إذ بينما كانت تحاول قمع إحدى الفتن أسرها الهنود وفتكوا بها .

١٢٠٦ م

هندستان

١٢١٠ — ١٢٣٥ م

١٢٣٦ — ١٢٣٩ م

١١٩٣ — ١٢٦٨ م

خوارزم

وفى تلك الأثناء أقطع السلطان ملك شاه خادمه « نشتاكين » إمارة خوارزم فحكمها ردحاً من الزمن ، ثم خلفه ابنه « قطب الدين محمد » الذى نقبه « سانجار » فيما بعد بلقب خوارزم شاه ؛ غير أن « أدسيز » بن قطب الدين ثار على سيده السلطان سانجار فى أواخر عهده واستقل بمملكته . و بعد عدة سنين ضم طاقش حفيد أدسيز عراق العجم إلى مملكته كما أقطعه الخليفة بعد مقتل « طوغرل »

(١) منهج السراج .

ابن أخى سانجار آخر الملوك السلجوقيين بلاد فارس وخوارزم وخراسان . ولما توفى « طاقش » خلفه ابنه « علاء الدين محمد » الذى أصبح باحتلاله بلخ وهراة سيد خراسان دون منازع ؛ كذلك لم يلبث أن ضم إلى مملكته مازندران وكرمان وغزنة ، ثم بلاد ما وراء النهر التى كان يحكمها حاكم بالنيابة عن رئيس قبائل كرخيتى . وفى سنة ١٢١٤م زحف علاء الدين على عاصمة الخلافة ، غير أن عاصفة هوجاء ثارت فى جبال آسباد على مقربة من همدان فعرقلت زحفه واضطرته إلى أن يعود إلى عاصمة ملكه ؛ وما كادت تنقضى بعد ذلك أربع سنوات حتى اكتسحت البلاد قبائل مغولية ، كان هو السبب المباشر فى استفزازها لقسوته ووحشيته .

الموصل ٥٨٩–٦٦١هـ

وفى ذلك الحين كانت أسرة « زنكى » قد انقرضت فى الموصل ؛ وكان آخر أمراء « الأتابكة[1] » قد أعقب طفلا صغيراً يدعى « مسعود » تولى تربيته مملوك أبيه « بدر الدين لؤلؤ » . وفى سنة ١٢١٨ م توفى مسعود ، ثم مات من بعده ابنه الصغير ، فأصبح بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ؛ ودام حكمه سبعا وثلاثين سنة حتى إغارة المغول .

الروم ١٢٤٣ — ١٢٤٤ م

وفى سنة ١٢٣٥ — ١٢٣٧ م كان « علاء الدين قايقوباد » الحفيد السابع للسلطان سليمان متربعاً على عرش قونية ، عند ما زحف المغول لأول مرة على آسيا الصغرى فنشبت بينه وبينهم عام ٦٤١ هـ معركة رائعة دارت فيها الدائرة عليه ، ولكن الصلح تم بينهما على أن يدفع للمغول جزية سنوية ويستخدم رجلا منهم فى بلاطه يدعى « بروانة » .

مصر سنة ١٢٤٠ — ١٢٤١ م

ذكرنا فيما سبق كيف نادى « الملك الصالح أيوب » بنفسه ملكا على مصر سنة ٦٣٨ هـ ؛ وكيف أخذ يوسع رقعة مملكته تدريجياً ، حتى استولى على الشام وأجبر أمراء « آل بويه » حكامها الأصليين على الاعتراف بسيادته عليهم ؛

(١) نور الدين أرسلان شاه .

ولكنه بينما كان منهمكا فى نشر الأمن فى ربوع البلاد أغارت على الشام فلول جيش « خوارزم شاه » التى فرت من أمام جيوش المغول ؛ وأوغلت فى البلاد تعيث فيها نهباً وسلباً ، فانتهز أحد الأمراء إغارة هؤلاء الفلول واستخدمهم لمصالحه الخاصة ؛ ولكن لم يمض سوى قليل حتى استخدمهم زعيم آخر لمآربه الشخصية ، غير أنهم لم يلبثوا أن انقلبوا على جميع أمراء الشام ، وراحوا يعيثون فى البلاد فساداً ويعملون السيف فى رقاب أهلها ؛ فجمع « الملك الصالح » فلول جيشه وأثخن فيهم وظل يتعقبهم حتى استأصل شأفتهم سنة ٦٤٤ .

الحرب الصليبية الثامنة ٦٤٧ هـ ١٢٤٩ — ١٢٥٠ م

وبينما كان الملك الصالح منهمكا على هذا النحو فى قمع تلك الاضطرابات والفتن ، أغارت على البلاد الإسلامية حملة صليبية ثامنة بقيادة « الملك لويس » التاسع ملك فرنسا الذى يسميه العرب « ريد فرانس » فنزل لويس فى مدينة دمياط بعد أن هجرها سكانها المسلمون ، وحول مساجدها إلى كنائس ، وراح الصليبيون يرتكبون أشنع الجرائم ، وطفق أمراؤهم يتبارون فى إقامة الولائم الباذخة كما استسلموا إلى أحط الرذائل وأسوأ الموبقات « فانتشر الفساد بين صفوفهم انتشاراً لم يستطع الملك لويس نفسه معالجته وتوقيف تياره الجارف » .

١١٩٣ — ١٢٦٨ م

ويقول ميشو : « كانت شهوة المقامرة قد تملكت نفوس الجنود والقواد على حد سواء ، حتى راحوا بعد ضياع أموالهم يقامرون على أسلحتهم وخيولهم . وهكذا استسلم الصليبيون تحت ظلال الصليب إلى أشنع ضروب الرذائل وتفشى الفساد فى صفوف جميع الضباط والجنود » . « ولأجل أن يشبعوا شهواتهم ويقتنصوا اللذائذ والمسرات ، التجأوا إلى ضروب العنف والاستبداد ؛ وراحوا يبتزون أموال التجار الذين كانوا يمدون المعسكرات بالأرزاق وفرضوا الضرائب الباهظة عليهم ، مما أدى إلى فرارهم ، فقل الطعام بين الصليبيين ، وطفقت الجنود تغير على القوافل وتنهب المدن وتأسر النساء المسلمات » . ويقول جونفيل « انحط الصليبيون إلى أسفل الدركات إذ راحوا يغتصبون العذارى والمتزوجات » .

١٠ شعبان ٦٤٧ هـ ٢٣ — ١١ ١٢٤٩ م

وخلال وجود الفرنج فى دمياط توفى « الملك الصالح » أيوب[١] بعد أن قضى فى الحكم نحو عشر سنوات ؛ وكان ملكا عادلا مستقيما كبير النفس عظيم الهيبة متحفظاً لم يقدم على عمل قط من غير أن يستشير قواده ورجال بلاطه ، وإليه يعزى تأسيس فرقة المماليك البحرية[٢] . وقد خلفه ابنه الوحيد المسمى « تورانشاه » والملقب « بالملك المعظم » ، وكان مقيما عند وفاة أبيه على حدود الشام فأخفت زوجته « شجر الدر » — التى كانت على جانب عظيم من الشجاعة والدهاء — خبر وفاة زوجها حتى أقسم كبار القواد لابنها يمين الطاعة والولاء . ٦٤٨-٦٦١هـ

انتهز الفرنج فرصة وفاة «الملك أيوب» وتوغلوا فى البلاد المصرية ، ولكنهم منوا بشر هزيمة بعد أن قتل منهم عدد كبير ، كما وقع لويس نفسه وقواده أسرى فى قبضة المسلمين ؛ ولم يمض سوى قليل حتى سخط المماليك البحرية على تورانشاه لتحزبه إلى « البرجيه » وهى الفرق العسكرية المنافسة لهم فقتلوه . وبعدئذ نادت « شجر الدر » بنفسها ملكة عليهم كما دعى لها على منابر المساجد ، ونقش اسمها على العملة ، ولقبت بالمستعصمية أى (خادمة الخليفة المستعصم فى بغداد) والصالحة (زوجة الصالح أيوب) (وملكة المسلمين) و (أم الملك المنصور خليل[٣]) . وعندئذ قلدت « شاشنكير معز الدين أيبك » قيادة الجيش العامة[٤] ، ولكن ما هو إلا أن خلعها واعتلى العرش عوضاً عنها ، غير أن الأمراء أبوا الموافقة على توليته ، وأجمعوا على المناداة بأمير من الأمراء ملكا عليهم ، وفى الحال انتخبوا «موسى» حفيد الملك الكامل ، وكان شابا يافعا وتلقب « بالملك الأشرف » . وفى ذلك الحين كان الناصر يوسف حاكم دمشق وحلب هو فى الواقع الحاكم المسيطر على ١٢٥٠م

٥-٨-١٢٥٠م ٦٤٨هـ

(١) الملقب « بنجم الدين » .
(٢) سموا كذلك لوقوع معسكراتهم على ضفاف النيل .
(٣) كان لها ابن يسمى خليل ، توفى فى سن الطفولة .
(٤) أتابك العساكر .

الشام ، وبتوسط الخليفة عقدت معاهدة صلح بينه وبين « أيبك » نائب
١٢٥٣ — ١٢٥٤ م «الملك الأشرف» نص فيها على جعل حدود مصر تمتد إلى نهر الأردن . ولكن
لم تكد تنقضى سنة واحدة حتى عاد « معز الدين أيبك » واغتصب العرش من
الملك الأشرف وأعاده إلى موطنه اليمن . ومما هو جدير بالذكر هنا أن الأشرف
آخر الملوك الأيوبيين يعتبر آخر الملوك الأيوبيين الذين قرئت باسمهم الخطبة فى جوامع مصر . ويقول
لنا الرواة إن أيبك أخذ يمعن فى اضطهاد المماليك البحرية حتى أجبرهم على الالتجاء
١١٩٣ — ١٢٦٨ م إلى الشام ، وبعدئذ نشب نزاع جديد بين « الناصر » « وأيبك » أدى إلى
توسط الخليفة ثانية لعقد معاهدة صلح بينهما اكتفى فيها الناصر بأن تمتد
حدود مملكته إلى العريش . ولما توفى « أيبك » خلفه ابنه « نور الدين على »
ولقب « بالملك المنصور » ، وفى الحال أرسل إليه الخليفة العقد والتشريف
الشام التقليدين . ومع أن ملك الشام كان هو المسيطر الحقيقى على البلاد الممتدة من
الفرات إلى تخوم مصر إلا أنه كان ثمة أمراء آخرون يحكمون بعض الإقطاعيات
داخل سلطنته ، فكانت حمص يحكمها وقت إغارة المغول « الملك الأشرف »
موسى حفيد « شركو » الذى عزله « الناصر » سنة ١٢٤٨ وعوضه عنها منطقة
تل باشر ؛ كما أقره المغول على ملكه وأنابوه عنهم فى الشام ، وكان يحكم « حماه »
حفيد « تقى الدين عمر » ابن أخى صلاح الدين العظيم الذى كان قد ولاه بنفسه
تلك المدينة ، واشتهر ابنه « محمد » الملقب « بالملك المنصور الأول » بشجاعته فى
المعارك التى دارت رحاها مع الصليبيين ، وبتكريمه العلماء ؛ وكان يجلس على
عرش حماه حفيد المنصور الثانى ؛ أما الكرك والشوبك ، فكانتا فى قبضة
٥٨٩ـ٦٦١ هـ أحفاد « الملك العادل » (سيف الدين أبو بكر) أخو صلاح الدين ؛ وكان يحكمهما
وقتئذ الملك المغيث تقى الدين عمر . وبجانب تلك الإمارات كان الأيوبيون
لا يزالون محتفظين بقسم صغير من الجزيرة ، وكان أميرها وقتئذ « الملك الكامل »
خامس ملوك تلك الأسرة الذى قتله المغول فى أثناء زحفهم المشهور .

حماقة خوارزم شاه

هكذا كانت حال الملوك والأمراء المسلمين عند زحف المغول ، ويقول لنا المؤرخون إنه عقدت فى سنة ١٢١٨م معاهدة صلح بين جنكيزخان وخوارزم شاه توثقت بموجبها العلاقات الودية بين الملك البربرى الذى كان يتحكم فى رقاب عدة ملايين من القبائل الرحل المسلحين ، وبين ملك التركمان الطائش الذى ارتكب لسوء الطالع عملا يشف عن القسوة والحماقة ، فأثار على العالم الإسلامى عاصفة هوجاء حولت غربى آسيا خلال بضعة أعوام إلى مقبرة شاسعة وأرض يباب بلقع ، ويلخص الحادث ؛ أن ملك المغول كان قد أرسل جماعة من التجار لشراء بعض الأمتعة ، فلما أشرفوا على ماوراء النهر ، قتلهم نائب خوارزم شاه على مقربة من الحدود واستولى على ما معهم بحجة أنهم إنما جاءوا ليتسقطوا أخباره . ولما طلب ملك المغول تسليم النائب المجرم لينزل به ما يستحقه من عقاب أجابه خوارزم شاه بقتل رسوله تحديا له ، فثار عندئذ ثائر جنكيزخان ، وزحف بجيشه البالغ زهاء المليون على فرغانة سنة ٦١٥ هـ .

إغارة التتر ١٢١٨م

كانت بلاد فارس وما وراء النهر فى تلك الآونة — بالرغم من الفتن التى كانت تنشب فيها من حين لآخر — مزدهرتين ، وكان أهلها يرفلون فى حلل السعادة والرفاهية ، كما كانت الحركة العلمية والصناعية والأدبية زاهرة زاهية ، وليس أدل على بلوغ هاتين المملكتين حد المدنية والرقى من مدنها العامرة ، ومزارعها النضرة ومبانيها المنيفة الذرى ، كما كان يبلغ عدد سكان كل من هراة وبلخ مليون نسمة ، أما بخارى وسمرقند ، فكان عدد سكانها يفوق هذا العدد بكثير .

١١٩٣ — ١٢٦٨م

اكتسحت جيوش التتر جنود الملك خوارزم شاه كما تكتسح السيول ماتصادفه من الحصى والرمال ، وإذا أغفلنا ذكر المدن الصغيرة والقرى العديدة ، وأمعنا النظر فى وصف المؤرخين لحالة المدن الكبرى التى كانت مركزاً للمدنية وسوقا للتجارة ، لتبين لنا جليا ما حل بهذه الأصقاع من الدمار والخراب . فتقول

تخريب بخارى

لنا الرواية إن هؤلاء المغيرين انقضوا على « خوجاند » انقضاض الصواعق ، وأعملوا فيها يد القتل والتخريب ، أما بخارى فقد استحالت ركاما وأنقاضاً ، ويصف ابن الأثير زحف التتر على هذه الحاضرة العظيمة الشأن بعبارات مؤثرة بليغة تذيب القلب حسرة وأسى .

حزيران ١٢١٩ م

استمر المغول فى توغلهم فى وادى الصفد الجميل حتى أوفوا على سمرقند التى لم تكن عاصمة بلاد ما وراء النهر فحسب بل كانت أيضاً من أهم المراكز التجارية فى العالم ، وكانت تبلغ مساحتها ثلاثة أميال ، يحيط بها سور له اثنا عشر بابا من الحديد وحصون متفرقة ، كما كانت تتألف حاميتها من ١١٠ ألف جندى بينهم ٦٠ ألف من التركمان والكنكليس و٥٠ ألف من الفرس ؛ فلما أشرفت الجيوش الثلاثة التى اجتاحت بلاد ما وراء النهر على المدينة المنكودة الحظ ، بعث إليها قائد المغول سرية لارتكاب أروع الجرائم الوحشية .

ولقد ظن الجنود الأتراك لأول وهلة أن المغول سيعاملونهم معاملة المواطنين فهجروا المدينة مع عائلاتهم وأموالهم ، ولكن المغيرين انقضوا عليهم وذبحوهم على بكرة أبيهم .

تخريب سمرقند ٥٨٩ـ٦٦١ هـ

وما إن علم أعيان المدينة وعلماؤها بمصير الجنود الأتراك حتى عرضوا طاعتهم على جنكيز خان ، ولكنه أباح برغم ذلك نهب المدينة وقتل السكان ، وأسر ٣٠ ألفاً من أمهر صناعهم وأرسلهم إلى أبنائه فى الشمال ، كما جند عدداً كبيراً لاستخدامهم فى الأشغال العسكرية والنقليات وما إلى تلك الأعمال ، ولم يبق إلا على ٥٠٠٠ من أهلها ليقصوا على الناس تفاصيل الفاجعة التى حلت بمدينتهم فذعر أهالى بلخ مما آلت إليه بخارى وسمرقند ، وفى الحال أذعنوا للمغيرين ؛ غير أن قائد المغول كان على مايظهر يخشى المدن العامرة و يتقى تركها آهلة بالسكان ، فلما اقترب من « بلخ » أخرج أهلها بحجة إحصائهم وقتلهم على بكرة أبيهم .

وفى آيار سنة ١٢٢٠ م استولى على أورگانج بعد أن نشبت بينه و بين جيشها

معركة رائعة ، فأثخن فيهم حتى أفناهم جميعاً ، وعندئذ أمر بكسر الأسداد القائمة على نهر سيحون ، ومن ثم شخص إلى نيسا وأسر منها ٧٠ ألفاً ، و بعد أن أوثقهم بالحبال أمر بطرحهم على الأرض ورشقهم بالنبال حتى أفناهم على بكرة أبيهم . وفى نيسان سنة ١٢٢١ م انقض على نيسابور عاصمة دولة آل طاهر السلجوقية بفارس وعاث فيها نهباً وسلباً ، كما أرسل أصحاب الحرف وعددهم ٤٠٠ إلى الشمال . ويقول لنا ميرخوند : « يبلغ عدد من قتل فى مذبحة نيسابور والمناطق المجاورة ١٫٧٤٧٫٠٠٠ » .

مذبحة هراة

وفى هراة وضواحيها ظل هؤلاء المتوحشون يعملون معاول التخريب والسيف والنار أسبوعا كاملا . ويقال إن عدد الذين قتلوا فى تلك المذبحة بلغ ١٫٦٠٠٫٠٠٠ نسمة حتى أصبحت تلك البقعة قفرة موحشة . ومن ثم زحفوا على الرى ودينـاوار وهمدان فنهبوها وقتلوا معظم أهلها ، ثم واصلوا الزحف على بغداد عاصمة دار الخلافة العباسية ، ولكن جيوش المستنصر بعد معركة رائعة أوقعوا بهم وصدوهم عن التوغل فى البلاد .

الرى وهمدان

١١٩٣ — ١٢٦٨ م

ظل التتر يعيثون فى البلاد فساداً ، ويعملون فيها معاول الهدم والتخريب ، ويثخنون فى أهلها ، ويطاردون ملكها الذى كان أصل تلك البلايا والنكبات وهو يتوارى عن أعينهم ؛ وفيما كانوا يجدون فى البحث عنه قبضوا على جميع أفراد أسرته وقتلوا الذكور منهم ، غير أن أولاده الثلاثة استطاعوا الإفلات من قبضتهم ، كما تمكن أحدهم من مقاومتهم مدى حين . وفى تلك الأثناء كان خوارزم شاه قد اعتصم بإحدى الجزر فى بحر قزوين حيث توفى بمرض الرئة وحيداً مهجوراً ، كأنه أراد بذلك أن يكفر عن المصائب والويلات التى جلبها على العالم الإسلامى . أما ابنه الشجاع « جلال الدين » فقد تعقبه التتر من غير ما شفقة ولا رحمة ، فتراجع إلى خوارزم ثم هراة ، ومنها إلى غزنة حيث جمع حوله قوات جديدة استطاع أن ينتصر بها على المغول فى معركتين رائعتين ،

وفاة خوارزم شاه

١٢٢٠ م

ويلحق بهم أفدح الخسائر ، وعندئذ أخذ « جنكيزخان » يلاحقه بنفسه بحمية شديدة فعبر « الباميان » و « كابول » وجد فى السير حتى أتى على الموقع الذى اعتصم فيه الأمير على الضفة الغربية من نهر مهران ، فهجم عليه هجوما عنيفاً ، ولكن جلال الدين صمد له بشجاعته المعهودة ، وكاد يجليه عن موقعه لولا أن حاصره فى إحدى الشعاب ، وعندئذ قفز بفرسه من علو ٣٠ قدما إلى النهر ، وتمكن من العبور سالما إلى الضفة الأخرى حيث أمن جانبه ، وقد حالت جنود سلطان الهند المدعو « بلبان » دون عبور « جنكيزخان » الذى سحب جنوده بعد هذه الهزيمة وسار بها غربا ، وهكذا امحت معالم المدنية التى زهت عدة عصور فى بلاد ما وراء النهر وخراسان على أيدى هؤلاء المتوحشين ، وانحدرت البلاد إلى دركات الفاقة والجهل ، وتقوضت عظمتها ، وقفرت الطرق من القوافل التى كانت تخترقها لنقل حاصلات الصين والهند إلى غربى آسيا وأوربا ، واستحالت الأرض الزراعية المعروفة بخصوبتها إلى بلقع يباب ، واضمحلت الصناعات والفنون التى طبقت شهرتها الآفاق ، وغدت المدن والضياع أطلالا دارسة ، وقتل الفلاحون ، وأدخل من بقى منهم قسراً فى الجيش المغولى ، وحمل أصحاب المهن إلى أقاصى الشرق ليشتغلوا فى تجميل مسقط رأس الغازى ؛ وعلى الجملة قضت إغارة المغول قضاء مبرما على الحياة العقلية فى آسيا الوسطى ، ومع أن فارس والمغرب استردا تدريجيا ازدهارهما العلمى إلا أن بخارى وسمرقند لم تنتعش حياتهما العلمية قط ، وظلت الدراسة العلمية فيها مقتصرة على التصوف والفقه .

٥٨٩ـ٦٦١هـ

ويقول لنا المؤرخون إن جنكيزخان بعد أن قوض معالم المدنية فى أواسط آسيا وفارس وحولهما إلى صحراء قاحلة عاد إلى وطنه حيث توفى بعد قليل ، وعندئذ تمكن جلال الدين من استرداد قسم من بلاده ، ولكن لم يمض طويل وقت حتى زحف المغول عليه ثانية قبل أن يتمكن من حشد قواته وينظمها ، فاضطر إلى الاعتصام بجبال كردستان التى اغتاله فيها أحد سكانها .

وفاة جلال الدين

وفاة الخليفة المستنصر ١٠ جمادى الثانية ٦٤٠ هـ = ١٢ — ١٢٤٢ م

وفى سنة ١٢٤٢ م توفى الخليفة المستنصر فى أحرج مواقف الدولة العباسية خصوصاً والمدنية العربية عموماً ، وخلفه ابنه أبو أحمد عبد الله الملقب « بالمستعصم بالله » ، وكان ضعيف الرأى ، شديد البطش ، مغرماً باللهو ، وقد عرف عهده بنشوب الفتن والاضطرابات فى الداخل والخارج حتى تجمعت عليه الإحن والمصائب ، وقوضت دعائم ملكه وسببت هلاكه .

المستعصم بالله ١١٩٣ — ١٢٦٨ م

وهكذا تجمعت عليه شتى النكبات التى جعلته يتبرم من الحياة و ينوء كاهله بعبئها ومن جملتها النزاع بين الحنفية والحنابلة ، وهما فئتان كانتا دائما مصدراً لإثارة الفتن والاضطرابات فى بغداد ، ولا ننسى أيضا الخلاف الذى طالما نشب بين أهل السنة والشيعة الذين كانوا يسكنون الجهة الغربية من بغداد ، هذا علاوة على التحاسد والتباغض بين السوقة والدهماء من جهة و بين الطبقة الغنية والأرستقراطية من الجهة الأخرى ، وقد زاد فى تحرج الموقف تلك السياسة الخرقاء التى سلكها الخليفة فى تسريح جنوده لمزاولة أعمال التجارة والزراعة . وتقول لنا الرواية إنه كانت قد نشبت فى عهده فتنة بين السنة والشيعة ، فأمر الخليفة ابنه أبا بكر وكاتبه بهدم الكرخ واضطهاد أهله ، فاستاء وزيره مؤيد الدين محمد ابن العلقمى الذى كان من رجال الشيعة ، ويقال إنه أراد أن يثأر للاضطهاد الذى كان يلقاه أهل مذهبه فكاتب هولاكو يحرضه على الشخوص إلى بغداد ، وقد اتهمه مؤرخو العرب أمثال ابن خلدون وأبى الفداء والمقريزى والسيوطى بخيانة وطنه وخليفته ، كما أيدهم فى هذا الاتهام «مرخونت» أحد كتاب ملوك المغول ؛ أما « رشيد الدين » وحده فيبعد عنه التهمة و يصفه بأنه كان خادماً أمينا للخليفة ميالا إلى إنقاذ الدولة من الدمار المحدق بها ، ولكنه كان عاجزاً عن بلوغ وطره إزاء تصرفات الخليفة المتردد .

زحف هولاكو على بغداد ربيع الأول ٦٥٥ هـ

ومهما يكن من شىء فإن هولاكو — أخا جنكيزخان ونائبه فى منكوخان من أعمال فارس — بعد أن استأصل شأفة الباطنيين وهدم قلاعهم زحف على

تبريز ومن ثم أرسل وفداً إلى المستعصم يحمل إليه رسالة يقول فيها : « إنه كان قد تلقى منه كتابا خلال حربه مع «الدبار» يعده فيه بالمدد والأقوات ، ولكنه لم يبر بوعده للآن » ثم ختم رسالته بقوله : « يجب أن تغير خطتك وتعدل عن هذه المكابرة التى إن عادت عليك بشىء فإنما تعود بخراب دولتك وفقدان ثروتك» ، غير أن الخليفة مع ما كانت عليه الخلافة من وهن وضعف ، ومع افتقاره إلى جيش يناضل به الأعداء وحاجته إلى المستشارين الأصفياء ، وبرغم انتشار الفوضى فى كل مكان أرسل إلى ملك التتر جوابا يدل على التشامخ والكبرياء بدلا من أن يطأطئ هامته أمام تلك العاصفة الهوجاء . ومما زاد الطين بله أن الرعاع أهانوا الوفد عند ما قدم على الخليفة ، فاشتد بذلك سخط الزعيم الوثنى وزحف على قاعدة الملك العباسى بجيوش جرارة لا قبل للعالم الإسلامى بها ؛ وقد حاول جنود الخليفة مقاومة الغزاة قبل وصولهم إلى بغداد ، بيد أن تفرق كلمتهم أدى إلى إحباط جهودهم و إلحاق الهزيمة بهم فى آخر الأمر . ولما وصل المغول إلى بغداد حاصروها أربعين يوماً حصاراً لا هوادة فيه ، ونصبوا المنجنيقات على جميع القلاع والحصون المشرفة عليها ، ثم طفقوا يمطرونها بوابل من الحجارة والقاز المشتعل حتى أحدثوا فى أسوارها فجوة كبيرة ، وأحرقوا منازلها ، وعندئذ أذعن الخليفة المتردد لطلب الصلح وفتح باب المفاوضات مع هولاكو الذى سرعان ما استدعى كبار ضباط المستعصم وقتلهم هم وخدامهم وأتباعهم ، فساء بذلك موقف الخليفة الذى أبدى فى الحال استعداده إلى الإذعان بالتسليم على شرط أن يبقى على حياته وحياة سكان المدينة ، كما استأذنه فى الخروج إلى معسكره و بصحبته أخوه وولداه وحاشيته المؤلفة من ثلاثة آلاف جلهم من القضاة والأعيان والأشراف ، ولكن هولاكو مع ذلك لم يسمح لأحد بالمثول بين يديه إلا للخليفة نفسه وأخيه وولديه وثلاثة من رجال البلاط ، وقد استقبلهم ذلك الوحش استقبالا ودياً برغم ما كان يضمر لهم من الخيانة والغدر ؛ ولما نجح فى تهدئة روع الخليفة

٥٨٩ـ٦٦١هـ

تسليم المستعصم ٤ صفر ٦٥٦هـ

وأدخل الطمأنينة على قلبه ، أمره أن يوعز إلى الأهالى المسلحين بإلقاء السلاح والوقوف خارج أبواب المدينة بحجة إحصائهم ، وما إن أذعنوا إلى أوامر الخليفة وتدفقوا خارج أسوار المدينة حتى هجم عليهم التتر وفتكوا بهم فتكا ذريعا .

نهب بغداد

وفى صباح اليوم التالى أصدر هولاكو أمره المشئوم بنهب المدينة وذبح أهلها وإنا لنرى أنا نحتاج فى وصف تخريب تلك المدينة إلى بيان كبيان « غيبون » المؤرخ المشهور لكى نستطيع أن نقرب الحقيقة إلى أذهان القراء ؛ فقد خرج الشيوخ والنساء والأطفال من منازلهم حاملين المصاحف على أكفهم وهم يتوسلون ويتضرعون إلى الجنود بلهجة تفتت الأكباد أن يبقوا على حياتهم . ولكن الغزاة لم يعبأوا باستغاثتهم كما وطئوا أجسادهم بحوافر خيولهم ، وهجموا على نساء الأشراف والنبلاء اللواتى لم يعتدن السير فى ازدحام طوال سنى حياتهن وجروهن إلى الشوارع كما أنزلوا بهن أروع ضروب الإهانات وأذلها . أما تلك الكنوز الأدبية والفنية ومخلفات المدنية الفارسية التى جمعتها أيد حريصة نشطة بإشراف الخلفاء فقد دمرت تدميراً فى خلال بضع ساعات ؛ وطفقت شوارع المدينة تنساب فيها الدماء طوال ثلاثة أيام حتى اصطبغ ماء دجلة لعدة أميال بصبغة الدم القانية وظلت ريح التخريب والذبح وانتهاك حرمة الإنسانية تعصف بالمدينة ستة أسابيع كاملة حتى انهارت القصور المنيفة الذرى ، وتقوضت الجوامع المقدسة والضرائح الفخمة إما بالنار أو بالمعاول من أجل قبابها الذهبية ، وأعملت السيوف فى رقاب المرضى فى المستشفيات وطلاب العلم والأساتذة فى المدارس والكليات ؛ ونبشت قبور الأولياء وأضرحة الأئمة الصالحين ، والتهمت النيران نتائج قرائح العلماء والأدباء ، وألقيت الكتب لتلتهمها ألسن النار أو تبتلعها مياه دجلة ؛ وهكذا فقدت الإنسانية كنوز خمسة قرون ، وفنيت زهرة الأمة فناء تاماً .

١١٩٣ — ١٢٦٨ م
المذبحة العامة

وفاة المستعصم
٢٠ محرم ٦٥٦ هـ
٢٧ — ١ —
١٢٥٨ م

وبعد أن استمرت ريح هذه المذابح الدامية تعصف بالمدينة طوال أربعة أيام قبض هولاكو على المستعصم وأمر بضربه هو وأولاده وأفراد أسرته ضربا

مبرحا حتى فارقوا الحياة ؛ ولم ينج من هـذا المصير المحزن سوى عدد ضئيل من أفراد الأسرة الخاملى الذكر . وهكذا أمست بغداد موطن العلم ومثابة العلماء ، وعاصمة الثقافة الإسلامية ، وحاضرة العالم العربى خرابا يبابا ؛ بعد أن كان عدد سكانها قبل هذه الطامة الكبرى زهاء المليونين . ويقول ابن خلدون : « إن ١٠٠٠ر٦٠٠ر١ هلكوا فى تلك المذبحة فى خلال ستة أسابيع » . وبتدمير بغداد أرخى الظلام الدامس سدوله على غربى آسيا . ويروى المؤلفون العرب والفرس قصة هذا الخراب والتدمير بأسلوب مؤثر فياض ، فيقصون علينا تلك الأهوال التى أنزلها هؤلاء المتوحشون الوثنيون بالعالم الإسلامى فى منتصف القرن الثالث عشر ، ولا يستطيع أن يتمالك الإنسان غير المتعصب المكابر عن أن يذرف الدمع سخيا على تلك الأرواح وتلك الكنوز العلمية التى ذهبت ضحية التوحش والقسوة . ٥٨٩ـ٦٦١ هـ

ويقول ابن الأثير : « إن غارة المغول هى الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى ، التى عفت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها » . ويقول عبد اللطيف البغدادى : « إن إغارة المغول مصيبة تتضاءل دونها كل المصائب » . ويصف لنا جوينى مؤلف كتاب جاهان كوشا الذى كان فى خدمة جنكيزخان فى ذلك العهد : « إن الثورة التى اجتاحت العالم دمرت العلم ، وفتكت بالعلماء ولاسيما فى خراسان التى كانت مثابة العلم ومجتمع العلماء ، ويمكننا أن نسمى هذه الفترة بفترة قحط العلم وفقدان الفضيلة » .

وبعد أن أعملوا معاول التخريب فى بغداد ، وذبحوا سكانها عبروا نهر الفرات متجهين صوب الجزيرة يطاردون أهلها بالسيف والنار ، فأفنوا جميع ٩ صفر ٦٥٨ هـ ١٢٦٠ م

سكان الرها وحران[1] ونصيبين ، وذبحوا فى حلب ٥٠٫٠٠٠ من أهلها ، وسبوا عشرة آلاف من نسائها وأطفالها ، وكانت حران قد قدمت طاعتها على شرط أن يبقى المغيرون على مدينتهم ، إلا أنهم اقتحموها وقضوا عليها قضاءاً تاماً دون أن تأخذهم الشفقة حتى على الأطفال الرضع ؛ ومن ثم زحفوا كالسيل الجارف نحو الغرب يعيثون فساداً وتخريباً أينما ساروا يساعدهم فى ذلك انقسام كلمة المسلمين وانشقاقهم ، وواصلوا زحفهم حتى أقبل عليهم فى قرية « عين جالوت[2] » على مقربة من الناصرية السلطان بيبرس المشهور — الذى نادى بنفسه ملكا على مصر فيما بعد — فأوقع بهم شر إيقاع ، وأعملت جنوده الأسنة فى رقابهم حتى باءوا يتعثرون فى أذيال الهزيمة والخسران ، وظل يتعقبهم إلى ما وراء حلب ، وبذلك نظف الشام والجزيرة من ظلمهم . وكان ابن أيبك قد عزله أحد قواده المسمى « سيف الدين قوتوز » ، الذى نادى بنفسه ملكا ، غير أنه خر صريعاً فى موقعة عين جالوت ، وعندئذ اعتلى بيبرس العرش، ولقب « بالملك الظاهر » .

١١٩٣ — ١٢٦٨ م

١٥ رمضان ٦٥٨ هـ ١٢٦٠ م

٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م

تشرين الأول ١٢٦٠ م

إحياء الخلافة

وظل العالم السنى طوال سنتين كاملتين يشعر بحاجته القصوى إلى زعيم دينى ، تلك الحاجة التى عبر عنها السيوطى بعبارات مؤثرة ، وقد أدرك بيبرس ضرورة إحياء الخلافة ، فاستدعى إلى القاهرة أحمد « أبا القاسم » العباسى الذى كان قد نجا من مذبحة المغول .

وعند وصول الأمير الفتى إلى ضواحى القاهرة استقبله السلطان والقضاة وموظفو الدولة بالترحاب والتعظيم ، وبعد أن أجريت المراسيم الرسمية بإثبات نسبه أمام قاضى القضاة ، بويع بالخلافة ولقب بالمستنصر بالله ؛ وكان أول من بايعه من الناس السلطان بيبرس ، ثم قاضى القضاة تاج الدين ثم كبار العلماء ،

---

(١) هى قصبة ديار مضر بين الرها والرقة ، ومنها ابن تيمية إمام عصره فى العلوم الإسلامية المتوفى سنة ٨٢٧ هـ . (المعرب)

(٢) لا ينسى العالم الإسلامى لمصر ذلك اليوم الأغر المحجل الذى رفعت فيه نير هؤلاء المتوحشين عن أعناق المسلمين . (المعرب)

فالأشراف حسب درجاتهم . وأجريت تلك الحفلة فى ١٣ رجب سنة ٦٥٩ هـ (١٢ آيار سنة ١٢٦١م) فى حفل حاشد ونقش اسم الخليفة الجديد على العملة ، ودعى له فى الخطبة ، وسار فى اليوم التالى بالموكب المعتاد يوم الجمعة (١٧ رجب) إلى الجامع لابسا البردة ثم ألقى الخطبة التقليدية . وبعد أن تمت له المبايعة الرسمية بالخلافة ، قلد بيبرس منصب السلطان ، وأعطاه العقد والخلعة اللازمتين.

١٣ رجب ٦٥٩هـ
آيار ١٢٦١ م
٦٥٨-٦٦١هـ

وهكذا ازدهرت الخلافة العباسية فى القاهرة برعاية ذلك السلطان المجاهد وظلت منذ ذلك الحين منصباً دينياً محضاً حتى دخول السلطان سليم الفاتح العثمانى المشهور ، فتنازل له آخر الخلفاء عن منصب الخلافة ، وقد اتخذ ملوك آل عثمان منذ ذلك العهد سمة الخلافة ، واعترف لهم العالم الإسلامى السنى بمنصبهم الشرعى .